جنون المـــال

أصدق ما يقال فى التهافت على المال فى هذه الأيام ، إنه جنون ... لأن الجنون هو الذى يخرج الإنسان عن طوره ، ويضل العقل عن صوابه ، ويدفعه إلى الإجرام الذى لا يستبيحه وهو مالك لرشده ، محافظ على اتزانه ، مقدر للتبعة التى عليه ، والعاقبة التى تلقاه . وهذا هو الجنون الذى يتمثل لنا فى تهافت المصابين به على طلب المال ، غير مبالين أن يطلبوه من طريق الشر أو من طريق الرذيلة أو من طريق النذالة والسقوط ، فلم نسمع فى غير هذه الأيام أن رجلاً ينتمى إلى طائفة شريفة مجعولة لصيانة الشرف والنظام ، يقتل زميليه بعد تدبير طويل ، واحتيال خبيث ، ثم يشرع فى إحراق جثتيهما ، لينجو بفعلته ويأمن عاقبة عمله ، وإنه ليصنع كل ذلك ويصر على صنيعه ويروض عليه ضميره ساعة بعد ساعة ، ويومًا بعد يوم ، طمعًا فى مبلغ من المال لا يحمل اللص المحترف ، فى غير هذه الأيام ، على مثل هذا الصنيع .

ولم نسمع فى غير هذه الأيام أن أفرادًا من الطلاب الناشئين ، يتفقون على التسلل إلى عيادات الأطباء عسى أن يجدوا فى

ملابس أصحابها مبلغًا من المال ، قل أو كثر ، يأخذونه بالحرام وينفقونه بالحرام . ولم نسمع فى غير هذه الأيام أن الأخ يقتل ابن أخيه ثم يقتل نفسه بعده ، لأن أخاه ضاق ذرعًا بالإنفاق عليه . فلا تردعه براءة الطفولة التى وثقت به واستسلمت إليه ، ولا يردعه موقف الموت الذى يوقظ الضمير الميت بعد طول هجوعه ، ولا يتغلب شىء من ذلك على حقده الذى أججه فى نفسه حرمانه من بعض المال .

والمال محبوب حيث كان ، ومحبوب فى كل زمان .

ولكن هذا الحب ضرب من الجنون ، وليس بالحب الذى يصدر من العاقل ويبقى لصاحبه بقية من رشاد أو اعتصام .

من أين جاء هذا الطائف الغريب بعد الحرب العالمية ، وفى أثناء الحرب العالمية ؟

أهو « انحلال » يعقبه الزوال كما يجرى على ألسنة المتشائمين المذعورين من طغيان هذا الوباء ؟

أما أنه وباء فلا شك فيه ، لأنه طغى على جميع الأمم وظهر فى جميع البيئات !

وهذا هو الذى يدفع التشاؤم ويدعو إلى بعض الرجاء ، ولا تناقض فى هذا كما يبدو من الوهلة الأولى : لا تناقض فى الوباء الذى يدعو إلى الرجاء . لأن الإنسانية لا تصاب بالانحلال كلها دفعة واحدة ، والأمم لا تمرض مرض الفناء كلها

دفعة واحدة ، فإذا كان وباء عاما فهو ليس بانحلال ، وفى ذلك بعض العزاء وبعض الرجاء فى تبدل الحال غير الحال .

وأكبر الظن أنه اختلال فى أوضاع الأمور ، وليس بانحلال ينذر بالفناء .

هو اختلال فى توزيع المال بين الطبقات والأفراد أعطى أناسًا فوق ما يستحقون وحرم أناسًا مما يستحقون ، فاضطرب ميزان المجتمع ودب هذا الاضطراب إلى العقول والأخلاق .

ولاأحسب أننا نصفه الوصف الكامل إذا قلنا إنه اختلال ، أو إنه سوء توزيع للثروة ، ثم وقفنا عند هذا الحد اليسير .

فليس زماننا هذا أول زمان اختلت فيه موازين الأرزاق ، وأعطى أناسًا بغير حق وحرم أناسًا بغير حق ، وخص فريقًا بالثروة العريضة وفريقًا آخر بالضيق المحرج والإعسار الشديد .

كلا . ليس زماننا هذا بأول زمان جرى فيه هذا التفاوت فى الأرزاق . فقديمًا عرفت الأمم أناسًا يبنون القصور ويجمعون القناطير ، وأناسًا يحرمون القوت ولا يدخرون فى الصباح وجبة المساء من الطعام ، فضلا عن أرزاق أيام وأعوام .

وقديمًا قال الحكماء فى ذلك ، ونظم الشعراء فيه ما هو مشهور ومأثور من شكوى الزمن ، أو من تنبيه ذوى الثراء إلى واجب الأغنياء .

لكنه اختلال واختلال .

وقد يكون الفرق بين اختلال واختلال ، أبعد جدًّا من الفرق بين الفوضى والنظام ، وبين الاختلال والاعتدال .

فليس المهم فى اختلال الثروة سوء التوزيع ، وإنما المهم فيه كيف يسوء التوزيع ، وكيف يكون الحصول على الثروة ؟ وكيف يكون الإنفاق ؟ ومن الذى ينفق ماله الكثير ؟

ولهذا يقع الفارق العظيم بين اختلال واختلال ، وقد وقع هذا الفارق العظيم فى أيام الحرب العالمية ، وبعد أيام الحرب العالمية ، فوقع العالم كله فى هاوية هذا البلاء .

يقول الرياضى الكبير « أوليفر لودج » ليس من الحكمة أن تهتم القوانين بمن يحمل السلاح ، ولا تهتم بمن يحمل المال ، وهو سلاح أخطر من كل سلاح .

وهذا هو مقطع الصواب فى كل مشكلة من مشاكل الثروة ، وكل آفة من آفات الاجتماع .

والحرب العالمية لم تجن على الأمم جناية الاختلال ثم تركتها عند ذلك . ولكنها أضافت إلى الاختلال كل جناياته ، فوضعت المال فى شر الأيدى ، ومكنتهم منه بشر الوسائل . وفتحت لهم شر الأبواب للبذل والإنفاق .

وضعت المال فى شر الأيدى ، لأنها هى الأيدى التى امتلأت بالمصادفة من تقلبات الحرب وطوارئ المفاجآت ، أو هى أيدى الوضعاء الذين يتسفلون فى طلب الرزق ولا يكلفهم التسفل

مشقة تأباها طبائعهم الوضيعة ، لأنهم من قبل ذلك وضعاء .

ومكنتهم منها بشر الوسائل ، لأنها وسائل الغش وَخدمة الشهوات والاتجار فى السوق السوداء بأقوات الجياع ، وأدوية المرضى ، وتهريب السلع ومضاربات الأسعار .

وفتحت لهم شر الأبواب للبذل والإنفاق ، لأنهم ينفقون المال بغير مبالاة فى سوق الفساد ، ويبعثرونه ذات اليمين وذات اليسار لشراء الذمم والأعراض وتشجيع الغواية والإجرام .

وهذا هو الاختلال المخيف ، لأنه اختلال يقلب أوضاع الأمور وينقض المبادئ القويمة ، ويهدم الاعتقاد فى الخير والعدل والإنصاف .

وعندئذ تجب مراقبة الأيدى التى تحمل المال . كما تجب مراقبة الأيدى التى تحمل السلاح . لأنها تقتل بسلاح المال كل خلق شريف ، وتحمى به كل خلق مرذول .

ومتى ضاعت الثقة بالإنصاف ، وكثرت وسائل الإغراء ، وارتفع إلى مقام القدوة المحسودة من كانوا فى مواطئ الأقدام . فقد بطل الشعور بالعيب وغلب على النفوس شعور واحد : وهو المكسب العاجل واللذة العاجلة ، فكلهم يعمل لساعته الحاضرة ولا يبالى بالغد القريب ولا بالمستقبل البعيد . ومن بعده الطوفان .

ولا نجاة للإنسانية فى هذه الحالة إلا بتقصير أجلها وتوقيف

أثرها وإقامة السدود المنيعة التى تصد تيارها الجارف ، قبل أن يكتسح فى طريقه كل أساس من أسس العمران . وعلى المصلحين والحكومات واجب مضاعف فى أمثال هذه الأوقات .

فالمصلحون مسئولون عن إحياء المبادئ وتثبيت العقائد وتغليب المثل العليا على المنافع الصغيرة . لأن النفس الإنسانية لا تتهالك على اللذة العاجلة إلا إذا أقفرت من المبادئ الباقية ، وخلت من العقيدة المقنعة التى تقاوم إغراء الساعة . وتطمئن إلى دوام الخير والصلاح .

أما الحكومات فواجبها الأكبر فى أمثال هذه الأوقات أن تنزع السلاح من أيدى المجرمين ، ونعنى بالسلاح هنا سلاح المال ، وهو فى الواقع أمضى سلاح ، ولولاه لما حمل المجرم السفاك سلاح النار والحديد .

وليس المقصود أن تصادر الحكومات أموالا فى أيدى المالكين ، لأن المصادرة عمل يأباه نظام الحكم الحديث .

ولكن المقصود هو استخدام الضريبة لنفع المجتمع كله بأموال بعض الأفراد ، وهو من جهة أخرى إغلاق أبواب المفاسد التى تنفق فيها الأموال بغير حساب ، وتباع فيها الأعراض والأخلاق بيع السماح .

وليس فى الضرائب المشروعة مخالفة لمبادئ الحرية أو قواعد الاقتصاد . لأن المجتمع صاحب الحق الأول فى الأموال التى

يجمعها الأفراد من أبنائه ، ولا سيما فى أوقات الحروب وما بعد الحروب . إذ تكون الثروات الطارئة مأخوذة فى الغالب من أقوات الناس ومن الخسائر الفادحة التى تحملوها على السواء .

وإذا بقيت الأموال الكثيرة فى أيدى الأفراد فينبغى أن تحول الحكومات بينهم وبين استخدامها فى المفاسد والآثام ، وهى قادرة على ذلك إذا حجرت على أسباب الفتن وأقامت الرقابة على أسواق الشهوات ووضعت المصاعب فى سبيلها ، وحالت بينها وبين إيقاع الأبرياء فى شباك الإغراء والإغواء .

* * *

إن الأطباء الاجتماعيين يحدثوننا عن آفات الأمم وأدواء الجماعات ، ويحدثوننا عن أعراض من الجنون تصاب بها بعض هذه الجماعات فى أوقات بعد أوقات .

فإن لم يكن تهافت بعض الناس على المال فى زماننا هذا جنونًا أو سعارًا ، فلا نعرف له اسمًا آخر بين الأسماء ، وإذا كان المصلحون والمسئولون لا يحمون الأمم منه ، كما يحمونها من مجنون يحمل السلاح فى كلتا يديه – فقد تذهب الأمم فريسة لذلك الجنون المنطلق من جميع القيود .

وكل شىء جائز إلا أن يقف المصلحون والمسئولون مكتوفى اليدين حيال هذه السورة الطائشة ، فإن موضع الكتاف هنا هو

أيدى المجانين ، لا أيدى المصلحين والمسئولين ، ووقانا الله العاقبة إذا انطلقت الأيدى التى تستحق الكتاف ، وكتفت الأيدى التى تتحرك للخير والإصلاح .

obeikandl.com